

الفكاهة في شعر "حافظ إبراهيم"

لم يكن "حافظ إبراهيم" من الكثيرين في نظم الشعر الفكاهي، على الرغم مما عُرف عنه -في حياته الخاصة- من نوادر كثيرة تنم عن خفة ظل مطبوعة. ولا نعرف سبباً لقلّة الفكاهة في شعره -إذا ما قورنَ بنظيره "أحمد شوقي"- إلا أن يكون الشعر في نظره أرفع قدراً من أن يُساق للتفكّه، والتندر. فالقارئ إذا تأمل ديوان "حافظ" لم يكد يعثر إلا على تلك الأبيات أو القصائد الإخوانية التي تمثل أقل جزء من أجزاء الديوان.

ولكن حافظاً -على أية حال- كان إذا أراد الفكاهة أبداع، شأنه في ذلك شأنه في شعره الجادّ الهادر الذي كان يجلجل في أمسيات القاهرة في الثلث الأول من القرن العشرين.

فمن تصويره الفكاهي البديع هجاءه لرجل عظيم البطن، فهو يصفه بأنه يعطل سير أسلاك الكهرباء التي تحار إذا أرادت أن تتخذ لها طريقاً في (كرشه) الضخم مع أنها غالباً لا تعوقها أية حواجز:

عطلت فنّ الكهرباء فلم تجد شيئاً يعوق مسيرها إلا كما
تسري على وجه البسيطة لحظة فتجوبها، وتحار في أحشاكها

ويهجو بائع كتف فيصف وجهه بأنه: صفيق سميك، لا تستطيع العنكبوت أن تتخذ لها بيتاً فوقه؛ لأنه أملس بارد، كما أنه من برودته لا يكاد يحترق إذا مسته النار. فهو يقترح على صاحبه أن يقدّ من وجهه أغلفة للكتب التي يبيعها، فيقول

أديم وجهك يا زنديق لو جعلت منه الوقاية والتجليد للكتب
لم يعلّها عنكبوتٌ أينما تُركتُ ولا تخاف عليها سطوةُ اللهبِ

ومن روائع فكاهات حافظ إبراهيم تلك القصيدة التي ألقاها في حفل تكريم أقامه نادي طنطا للشاعر القاضي حفني بك ناصف عام ١٩١٢ بمناسبة نقله من القضاء إلى وظيفة مفتش بوزارة المعارف، وكانت آنذاك من كبريات الوظائف وكانت روح الدعابة والفكاهة عاملاً مشتركاً يجمع بين حافظ بك وحفني ناصف بك. ولعل هذا ما شجع حافظاً على أن ينطلق في هذه القصيدة على سجيته كما يبدو من مطلعها حيث يقول مخاطباً يوم تكريم صاحبه فيقول: إنك أيها اليوم السعيد قد شحذت همتي، وأرهقت مشاعري:

يا يوم تكريم حفني أرهفتَ للقول ذهني
فيا قريض أجبني ويا بيان أعني

وبعد أن يمدح صاحبه بما يلائم المناسبة، ويصفه بأنه عالم جهيد ضرب في كل علم بسهم، ويمتدح شعره الرقيق، ونثره الدقيق، وفكره الثاقب، ينتقل إلى روح

المرح فيقول إنه لولا مسكة من حياء وعقل ودين لدعا حضور إلى تناول الخمر
احتفالاً بهذا اليوم السعيد في خمارة (يني) الشهيرة:

لولا الحياء ولولا ديني وعقلي وسني
لقتت في يوم حفني أدعو لسكرة (يني)
ولا أقول لحفني ما قيل قدماً لمعن

وهو في هذا البيت الأخير يشير إلى قصة مشهورة في كتب التراث مفادها أن
شاعراً عربياً أراد أن يختبر حلم معن بن زائدة الشيباني، وكان مشهوراً بحلمه
فجاءه مادحاً فلما أدخل عليه وسُمح له بالإنشاد قال:

أتذكرُ إذ لحافك جلد شاةٍ وإذ نعلاك من جلد البعير؟

فقال معن: نعم. أذكر ذلك يا أبا العرب!!

فقال الشاعر:

وفي يمينك عكاز طويل تزدود به الكلاب عن الهرير؟
فقال: نعم، وإنه كعصا موسى.

فقال الشاعر:

وتأوي كل مصطبة وسوقٍ بلا عبد لدتك ولا وزير

فقال معن: نعم. أذكر ذلك.

وظل الشاعر يعدد لمن أيام فأيام فقره وجوعه، ومعن يتقبل ذلك بحلم وأدب
جم، حتى انتهى من أبياته مادحاً وأثابه معن ثواباً حسناً.
ولكن حافظاً لم يبر بوعده، بل ذكّر صاحبه حفني بك ناصف بماضيه في
الأزهر، حين كان مجاوراً يعانى من مشقة دروس الأزهر فيقول مشيراً إلى كتب
المجاورين التي تفيض بالشروح والمتون والحواشي:

لا تنس عيشاً تولى	ما بين شرح ومتن
ولّى شبابك فيه	ما بين مدّ وغنّ
وذقت من (جاء زيد)	ومن شروح (الشمّنيّ)
ومن حواشي الحواشي	على متون (ابن جني)
ما لم تذقك الليالي	قلبن ظهر المجن

[المد والغن: من الطرق الشائعة في نطق الحروف عند طلاب الأزهر و(جاء زيد) من أشهر الأمثلة في تعلم النحو العربي، والشمّني فقيه حنفي توفي عام ٨٧٢هـ ممن تدرس مؤلفاتهم في الأزهر، وابن جني (ت ٣٩٢هـ) من علماء اللغة القدامى المشهورين]

ثم يذكر حافظ إبراهيم صاحبه بأيام مجاورته في الأزهر مع صديقه سلطان محمد [الذي أصبح فيما بعد صاحب لقب بكوية أيضاً، بعد أن عين أستاذاً بدار العلوم التي تخرج فيها] ومعاناتهما من أكل المش وقصع القمل الذي أروع حافظ عن ذكره فقال:

أيام سلطان يلهو بمشّه ، ويغني
 بيت يقصع مالم أسمّه أو أكّني
 يشكو إليك وتشكو إليه، عيشة جبن

ويصور لنا حافظ كيف كان المجاورون يعانون من صداقة الجبن والمش
 ويتوقون إلى اللحم والدهن فلا يجدون إليهما سبيلا فيقول : إن سلطان محمد كاد
 يدعو حفني ناصف لقتله يأساً من تذوق اللحم فيقول:

أيام يدعوك: "حفني من .. أجزني"
 هات المسدس إني سئمت مشي - وجبني
 من لي بدرهم لحم عليه جبة سمن
 قرمت والله حتى صاحت عصافير بطني
 أيام عيدك يوم تفوز فيه بدهن

ومن إخوانيات حافظ الفكاهية ما كتبه إلى صديقه حامد سرّي وكان
 موظفاً بوزارة الزراعة، ومن جيران حافظ بمسكنه بالجيزة، وقد أقام حامد سري
 حفلاً تناول فيه ضيوف الحفل طعاماً شهياً، ونسي أن يدعو صديقه حافظ إبراهيم
 فكتب إليه عاتباً مهدداً بأنه سيشكوه لوزير الزراعة، ولستشار الوزارة، لأنه اهتم
 بدعوة صهره المدعو مصطفى الخولي ونسي جاره حافظاً فقال جافظ:

أحامد كيف تنساني وبينني وبينك يا أخي صلة الجوار

سأشكو للوزير فإن تواني شكوتك بعده للمستشار
 أيشع مصطفى الخولي وأُسي- أعالج جوعتي في كِسْرِ- داري
 وبيتي فارغٌ لا شيء فيه سواي وإنني في البيت عاري
 ومالي جزمةٌ سوداء حتى أوافيكم على قرب المزار
 وعندي من صحابي الآن رهط إذا أكلوا فآسأدُ ضواري

وفي نهاية القصيدة يهدد حافظ إبراهيم صديقه وجاره بأنه ينتظر منه تكفيراً عن نسيانه – مائدة حافلة بأطياب الطعام يزينها خروف صغير متبل محمّر مغطاة بصنوف من الحلوى الشبهية. ولئن لم يفعل فلينتظر هجاء قاسياً وتنديداً عنيفاً ببخله وتصيره في حق جاره وصاحبه:

فإن لم تَبْعَثَنَّ إلِّيَ حالاً بمائدة على متن البخار
 تُغَطُّها من الحلوى صنوف ومن حمل تتبل بالبهار
 فإني شاعرٌ يخشى لساني وسوف أريك عاقبة احتقاري

وهناك قصيدة شهيرة لحافظ إبراهيم مطلعها:

لي كساءٌ أنعم به من كساء أنا فيه أتيه مثل الكسائي

امتدح فيها حافظ كساءه الجديد، وعدّد مزاياه، ووصف أناقته ورقته وفخامته، وتأثيره في عيون الناس، ودعا لكسائه الجديد بطول العمر والوقاية من الحسد فقال:

لا أحالتُ لك الحوادث لوناً وتعدتك ناسجات الجواء
غفلت عنك للبلى نظراتٌ وتخطتكَ إبرة الرِّفاء

ثم وصف بدلته القديمة التي صاحبته قبل هذا الكساء الجديد، وكيف طال عليها الأمد فتغيرت ألوانها كما تغير الحرباء ألوانها، حتى كانت تذكيراً مستمراً لأصدقته بطيلسان ابن حرب الذي وصفه شعراؤنا القدامى وقالوا عنه الكثير ويختتم حافظ رثاءه لبدلته الهالكة بأبيات خرجت من حلاوة الفكاكة إلى مرارة العتاب للمصريين الذين يقيسون المرء بمظهره لا بمخبره، فيقول:

صحبتني قبل اصطحابك دهرًا	بدلته في تلون الحرباء
نسبها لطيلسان (ابن حرب)	نسبة لم تكن بذات افتراء
كنت فيها إذا طرقت أناساً	أنكروني كطارق بن وباء
كسف الدهر لونها واستعارت	لون وجه الكذوب عند اللقاء
ياردائي جعلتني عند قومي	فوق ما أشتهى وفوق الرجاء
إن قومي تروقهم جدة ثو	ب ولا يعشقون غير الرواء
قيمة المرء عندهم بين ثوب	باهر لونه وبين حذاء
قعد الفضل بي وقمت بعزي	بين صحبي، جزيت خير الجزاء

وكان حافظ مدعواً لإلقاء قصيدة في حفل جمعية رعاية الأطفال بحديقة الأزبكية. وعند دخوله أراد أن يداعبه، فطلب منه التذكرة، فقال له إنه حافظ

إبراهيم وجاء للمشاركة في الاحتفال السنوي كعادته بقصيدة، فزعم المشرف أنه لا يعرفه، وعليه أن يثبت شخصيته بييتين يرتجلهما.

فضحك حافظ وقال له: لم أر أخطب منك مشرفاً.. وارتجل هذين البيتين

رياض الأزبكية قد تحلت بأنجابٍ كرامٍ أنت منهم
فهبها جنة فُتحت لخيرٍ وأدخلنا مع المغفوء عنهم

وضحك المشرف وقال: تفضل يا حافظ بك..!!!.

ولما تولى السيد/ محمد الببلاوي رئاسة نقابة الأشراف بمصر، ذهب إليه "حافظ إبراهيم" يزوره عام ١٩٢٠ فلم يُسمح له بالدخول إلى نقيل الأشراف الذي كان إلى عهد قريب زميلاً لحافظ في دار الكتب المصرية.

فكتب إليه "حافظ" أبياتاً يعاتبه فيها ويذكره بزمالتهما القديمة في العمل ويقول له إنه لو زار (البابا) -رئيس النصارى- أو (الباب) -رئيس طائفة من الفرق الشيعية- لانفتحت له أبوابهما، فلما يُحال بينه وبين لقاء الحسيب النسيب نقيب السادة الأشراف، ويذكر "حافظ" لصديقه أنه شريف فلا تجوز عليه الصدقة خوفاً من أن يكون صاحبه قد ظن أنه جاء يطلب صدقة. ويهدد صاحبه في آخر الأبيات بأن هذا آخر العهد بينهما فيقول حافظ:

قد كان بابك مفتوحاً لقاصدهِ واليوم أوصد دون القاصد الباب
هلا ذكرت (بدار الكتب) صحبتنا إذنحن رغم صروف الدهر أحباب

لو أنني جئت (للبابا) لأكرمني وكان يكرمني لو جئتَه (الباب)
لا تخش جائزة قد جئت أطلبها إني شريف ولالأشراف أحساب
فاهناً بما نلت من فضل وإن قطعت بيني وبينك بعد اليوم أسباب

على أن أروع ما نظم "حافظ" في الفكاهة -في رأينا- تلك الأبيات التي قالها في صديقه الدكتور محبوب ثابت الطبيب السياسي الشهير، وكان ذلك في منزل الزعيم سعد زغلول باشا.

وكان محبوب ثابت معروفاً بلوازمه الغريبة مثل حصانه الذي أطلق أصدقائه عليه اسم (مكسويني) -وهو اسم بطل أيرلندي شهير مات منتحراً جوعاً كناية عن أن صاحبه يقسو عليه بتجويعه، وكان يجوب به شوارع القاهرة، ويغشى به المنتديات الأدبية والسياسية والمقاهي.

على أن أغرب لازمة من لوازمه كانت تلك (القافات) الكثيرة التي تشيع في كلامه، والتي اتخذ منها "شوقي وحافظ والأسمر" وغيرهم من شعراء عصرهم أسلوباً للسخرية من صديقهم "محبوب ثابت"، قال "حافظ إبراهيم":

يُرغى ويُزبدُ بالقافات تحسبها قصف المدافع في أفق البساتين
من كل قافٍ كأن الله صوّرها من مارج النار تصوير الشياطين
قد خصه الله بالقافات يعليّكها واختص سُبْحانه بالكاف والنون

ويتحدث حافظ عن غرائب محبوب ثابت حين يخطب في جمع من الناس فينتقل من موضوع إلى موضوع، ومن فكرة إلى أخرى، ومن بلدٍ إلى بلدٍ؛ حتى يرهق

مستمعيه. وهو لا يفعل ذلك عن غباء أو سكر؛ وإنما هي العبقرية الفذة، والإبداع
الغريب:

يغيّب عنه الحِجَا حيناً ويحُضِرُهُ حيناً فيخلط مختلاً بموزون
لا يَأْمَنُ السامعُ المسكين وثبته من (كردفان) إلى أعلى (فلسطين)
بيناً تراه ينادي الناس في (حلب) إذا به يتحدى القوم في (الصين)

ويذكر حافظ تلك الرؤى والأحلام التي كان محبوب ثابت يعيش فيها
دائماً، فقد كان معروفاً عنه أنه يرى دائماً أحلاماً وردية، ولا يملّ من تكرارها على
مسامع أصدقائه. وكانت أحلامه تتراوح بين عضوية البرلمان، وكرسي الوزارة، أو
الزواج من فتاة بكر لعوب غنية، فيقول حافظ:

يببت ينسج أحلاماً مذهّبة تغني تفاسيرها عن (ابن سيرين)
طوراً وزيراً مشاعاً في وزارته يصرف الأمر في كل الدواوين
وتارةً زوجَ عطْبُولٍ خُدْجَةٍ حسناء تملك آلاف الفدادين
يُعْفَى من المهر إكراماً للحيته وما أظنه من دنيا ومن دين